مقدمـــة

شهدت المجتمعات على مدار العصور - ولا زالت - حالات من الحراك، تتجلى بوضوح في الفعل السياسي والرغبة في التغيير، وتتبلور في إحساسها بحقها في أن تنعم بحياة، عمادها العدل والحرية واحترام حقوقها الإنسانية وكرامتها البشرية. وتنتفض بين الحين والآخر طلائع تمثل ضمير شعوبها، باحثة عن دورها الذي وجدت من أجله، وراسمة حلمها التغييري، عازمة على أن تطيح بالديكتاتوريات التي تسببت في قعود مجتمعاتها عن مواكبة التطور الإنساني العالمي.

وتأتي إسهامات أكاديمية التغيير العلمية في إطار تقديم الخبرة الإنسانية التراكمية للشعوب، تنميةً للعقل التغييري، وتعزيزًا للفكر الاستراتيجي، ونشرًا لثقافة التغيير على أسس علمية، مستفيدة في ذلك من التجارب الإنسانية على مر العصور، لاستكمال وصقل وتطوير طرق الكفاح التي بدأها أحرار الإنسانية الصامدون.

كتاب «أسلحة حرب اللاعنف»

ويأتي كتاب «**أسلحة حرب اللاعنف**» -في سلسلة تكتيكات حرب اللاعنف- كاستعراض علمي لتطوير الإنسانية لهذا النوع من الأسلحة.

وقد اخترنا مصطلح «**أسلحة حرب اللاعنف**» للإشارة إلى أن اللاعنف لايعني الاستسلام أو الوقوف بشكل أعزل في مواجهة الاستبداد؛ وإنما يستعمل وسائله الخاصة في الحرب التي يشنها ضد الديكتاتوريات على وجه الخصوص أو ضد خصومه السياسيين بصفة عامة. وتعتمد تلك الأسلحة على قوة الشعوب، تلك

القوة التي تستند إلى أسلحة فعالة ومؤثرة تقابل أسلحة الخصم، غير أن ما يميزها أن قوتها لا تكمن في إزهاق الأرواح أو تفجير المنشآت؛ إنما في بناء أفضل ما في الإنسان... عقله وروحه، وإرادته.

وعندما يقرر نشطاء المقاومة اللاعنيفة عبر العالم التصدي للديكتاتوريات بصدورهم العارية، متوشحين بثوب الأمل، وبريق الفكرة؛ فعليهم أن يخططوا للنجاح. لأنهم لا يسعون إلى تسجيل الحضور في مسرح الأحداث عبر أنشطة متنوعة؛ بل يسعون من خلال أنشطة مدروسة إلى تحقيق الانتصار... الانتصار على الذات بقهر الخوف، والانتصار على اليأس باقتلاعه من نفوس الجماهير، والانتصار على الاستسلام بطرد وهم المستحيل عبر تحرير عقول الجماهير المتطلعة إلى التغيير، والانتصار على الديكتاتوريات بتخليص البشرية من شرورهم. بل والانتصار للأساليب الحضارية الفعالة على وسواس العنف، الذي قد يظنه الناس خطأً الدواء الوحيد لأزماتهم.

إن علماء ونشطاء حرب اللاعنف يدركون عظم التبعة الملقاة على عاتقهم، فهم يُدَشِّنون مرحلة جديدة في تاريخ البشرية، تمتلك فيها الشعوب السلطة والقوة، بعد أن كانت أداة في يد قلة تحكمها، ويتجاوز فيها الفعل المقاوم إطار المحلية إلى المقاومة الإنسانية العالمية، حيث تذوب الحدود بين الدول في فلسفة الفعل المقاوم، وتحتشد الإنسانية على اختلاف ألوانها متجاوزة كل الحدود، للتصدي للظلم أيًا كان موقعه، وإقامة عالم العدل والحرية والكرامة الإنسانية. إن نشطاء ومنظري اللاعنف يعلمون أنهم يقودون ثورة في الفكر والفعل، ويعيدون تعريف القوة وتوزيعها في المجتمعات. ويحملون البشارة بأن البشرية تستحق أفضل مما هو كائن، وبأن ثمة وسائل جديدة لإدارة الصراعات ستفرض نفسها على منطق الفعل، وسائل تنتصر للقيم الإنسانية، وتنبع فلسفتها من تلك القيم.

إن استجابة البشرية للقيم الإنسانية النبيلة مرهون بامتلاك هذه القيم أسلحة قوية وفعالة تكافيء – بل تفوق – أسلحة خصومها، وهذا هو أحد التحديات الكبرى أمام أصحاب المباديء العليا، فالاكتفاء بترديد القيم النبيلة لا يجعلها واقعًا معاشًا؛ بل قد ينفر الناس منها باعتبارها لا تصلح لعالم يحوطه الشر من كل مكان. فهل يمتلك الحق أسلحة فعالة ومقنعة؟!

إن علماء ونشطاء حرب اللاعنف يوقنون وهم في أتون معركتهم الحضارية أن نجاح نشاط واحد يتحول إلى مصدر إلهام يحيي الأمل في الإنسانية الباحثة عن مخرج، ويقض مضاجع الديكتاتوريات. وأن الفشل قد يزيد من سطوة هذه الأصنام، ويوجه فعل الجمهور إلى اتجاهات لا تُحمد عقباها، سواء تَسَتَّر هذا الفعل في انسحاب يائس من مشروع التغيير، أو أخذ شكلًا سافرًا من العنف الشعبي الذي قد يلتهم فرص الحياة في المجتمع.

ولذلك عليهم أن يبدعوا وسائل فعالة، ولا يكتفوا باستخدام وسائل – أية وسائل. فدورهم لا يقتصر على التخلص من ديكتاتوريات عصرهم؛ بل إحداث ثورة في نمط الفعل التغييري، تلهم الأجيال سبلًا تقهر الظلم والظُلاَّم وتحافظ على المجتمع والإنسان معًا.

وتسعى مادة هذا الكتاب إلى التأسيس المنهجي لأسلحة حرب اللاعنف بتقديم أهم ما يجب معرفته حول تلك الأسلحة.

ويحتوي الكتاب على ثلاثة أبواب رئيسة تلي التمهيد:

الباب الأول: يجيب على أسئلة فلسفية ابتدائية حول أسلحة حرب اللاعنف.

الباب الثاني: يستعرض ترسانة منتخبة من أسلحة حرب اللاعنف التي استخدمت على مدار التاريخ المدون.

الباب الثالث: يتناول مستقبل أسلحة حرب اللاعنف وسبل تطويرها.

وفي النهاية فقد وضعنا بين يدي القارئ هذه الدراسة كحجر أساس لتوضيح الصورة الكلية لأسلحة حرب اللاعنف، وكيف انتقلت بها المجتمعات من مقاومة الهواة إلى انتصار المحترفين. والتبشير بمستقبل وأفق تطوير هذه الأسلحة.

قسم الدراسات والأبحاث

أكاديمية التغيير

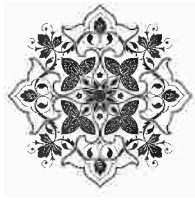

التمهيـــــد

١- الإطار العام للكتاب.

٢- المفهوم المختزل لحرب اللاعنف.

٣- تساؤل يحتاج إلى جواب (سؤال البحث).

٤- منهجية الإجابة

٥- طبيعة هذا الكتاب

١- الإطار العام للكتاب

نتناول في هذا البحث طبيعة أشكال ووسائل الممارسة السياسية اللاعنيفة للحركات التغييرية والمقاومة، في إطار الدول ذات الأنظمة الديكتاتورية، أو الشمولية، أو الفردية، أو الاستبدادية.. فهذا الكتاب لا يتعرض لجميع أشكال ووسائل الفعل التغييري المقاوم، مثل الثورات والانقلابات والتدخلات العسكرية الخارجية، وغيرها من أشكال الفعل العنيف، كما أنه لا يتناول أشكال ووسائل المعارضة الدستورية الباردة المختلفة، كرفع الدعاوى، ومقاضاة الممارسات الفاسدة. كما أنه لا يتعرض لأشكال الممارسة السياسية في الدول ذات الأنظمة الديمقراطية أو التعددية كتداول السلطة عبر الانتخابات.

وقد اضطرنا الحديث عن أشكال الممارسة السياسية المدنية اللاعنيفة إلى استخدام بعض المصطلحات السياسية المتعلقة بممارسات المجتمع المدني في الدول الديمقراطية من قبيل «**العمل الدستوري**» أو «**الممارسة الدستورية**»، وهي المصطلحات التي أعدنا توصيفها بما يناسب طبيعة العمل السياسي في ظل الأنظمة الديكتاتورية - محور كتابنا هذا - كما دعانا الحديث عن الفعل التغييري والمقاوم إلى استخدام بعض مصطلحات الحرب العسكرية المختلفة مثل «**التسلح**» أو «**الأسلحة**» أو«**المقاومة**» أو «**الحرب**»، وهي المصطلحات التي أعدنا توصيفها وتعريفها في إطار الفعل اللاعنيف. ومن ثم لابد أن تُقرأ وتُفهم مثل هذه المصطلحات في سياق الممارسة اللاعنيفة – مناط بحثنا - بعيدًا عن مدلولاتها في الفعل العسكري العنيف، كما استخدمنا مصطلحات «**الأسلحة**» و«**الوسائل**» للدلالة على نفس المفهوم. وهو أدوات ممارسة الفعل اللاعنيف.

ونشير إلى أن هذا التحديد للإطار العام للكتاب، وطريقة استخدامنا للمصطلحات السياسية والعسكرية فيه؛ يعد أمرًا في غاية الأهمية، حرصًا على

تفادي أي لبس، أو سوء فهم، أو تحليل في اتجاه يبعد تمامًا عن صلب النتائج والأفكار التي نعرضها من خلال هذا الكتاب. خاصةً وأن استخدامنا للمصطلحات يبدو مغايرًا لما هو شائع في مثل هذه الكتابات.

كذلك لا يدخل في نطاق هذا الكتاب الحديث عن «**التكتيكات**»، وهي فن إدارة الأسلحة والقوات، فالكتاب يتعرض فقط للأسلحة وفلسفتها وسرد نماذج لها، ولا يتعرض بشكل موسع لتفاصيل التخطيط واستخدام الأسلحة تكتيكيًا.

ويأتي هذا البحث لمواجهة معضلة فكرية و«**ممارساتية**»، تسود واقع الفعل السياسي في كثير من البلدان التي ترزح تحت نير الأنظمة الإستبدادية، وبصفة خاصة في بلدان العالم العربي والإسلامي، وهي معضلة المفهوم المختزل والمشوه لحرب اللاعنف.

٢- المفهوم المختزل لحرب اللاعنف

يختزل الكثيرون حرب اللاعنف في أنماط معينة من الأنشطة، كالمظاهرات، والإضرابات، والاعتصامات. ويردد آخرون كلمة «**العصيان المدني**» معبرين عن أشد أسلحة حرب اللاعنف فتكًا بالخصوم السياسيين، ويعتقد فريق آخر أن وسائل المعارضة الدستورية - كالتداول السلمي للسلطة عبر الانتخابات- تمثل جوهر العمل اللاعنيف. إلا أن معنى أسلحة حرب اللاعنف يتجاوز كل هذا، كما تتنوع أشكالها وتأثيراتها واستخداماتها تنوعًا كبيرًا، يجعل اختزال الفاعلين السياسيين لها في هذه الأنماط التقليدية الشائعة، والخلط بينها وبين وسائل المعارضة الدستورية؛ وكأنهم يقفون مكتوفي الأيدي والعقول في مواجهة ترسانة ضخمة من أسلحة الديكتاتوريات، مما يجعل تلك الأنماط التقليدية قليلة الفائدة، إن لم تكن عديمة الجدوى بالكلية.

وعلى الرغم من افتقاد هذا الكتاب إلى دراسة إحصائية دقيقة حول تصور القادة

والفاعلين السياسيين لأساليب ووسائل اللاعنف؛ إلا أن كثيرًا من نقاشاتنا، وحواراتنا مع العديد من القادة، والنشطاء، والفاعلين السياسيين، والمفكرين، والاستراتيجيين – في العالم العربي والإسلامي على وجه الخصوص - والتي تمت عبر أنشطة الأكاديمية المختلفة؛ أدت بنا إلى ملاحظة هذا الاختزال المُخِّل، والتفكير المضطرب لدى الكثيرين.

فمع أنهم لم يعودوا يؤمنون بجدوى العمل العنيف للتخلص من الاستبداد الداخلي، وأنهم يرون أن العمل «**السلمي**» من خلال القنوات الدستورية بات هو السبيل الوحيد أمام تحرير الشعوب من قيود الاستبداد؛ إلا أنهم لا يملكون صورة محددة أو واضحة عن الأسلحة أو الوسائل أو الآليات التي لابد من استخدامها لتغيير قواعد اللعبة السياسية لصالح هذه القنوات الدستورية، بحيث يكون خوض المواجهة من خلالها عملًا مجديًا، ولا يعرفون كيفية خلق وسائل أو أسلحة جديدة، ولا يدركون الفارق بين العمل «**السلمي البارد**» والعمل «**اللاعنيف الساخن**»، ولا يفطنون لإشكالية وصف ممارساتهم بـ «**الدستورية**» في ظل نظام مستبد، مما يقدح في وعيهم السياسي وجدوى المسار الذي ينتهجونه كما سيتبين لاحقًا [١].

٣- تساؤل يحتاج إلى جواب

وانطلاقًا من هذا اللبس الناتج عن الصورة الضبابية عن حرب اللاعنف لدى كثير من القادة السياسيين، فقد استلزمت الدراسة توضيح فكرة أسلحة حرب اللاعنف في عقل القارئ والفاعل السياسي، ومدى اختلافها وتمايزها عن غيرها من الوسائل الدستورية «**السلمية**»، والإجابة على أسئلة أساسية من قبيل: هل هناك فارق حقيقي بين أسلحة حرب اللاعنف وغيرها من الوسائل الدستورية «**السلمية**»؟ وأين يكمن هذا الفارق أو التمايز؟ وهل يمتلك اللاعنف ترسانة حقيقة

(١) انظر الفقرة الأولى في الفصل الثالث .ص٣٢ من هذا الكتاب.

من الأسلحة تلبي حاجات الحركات التغييرية خلال مراحل الحراك التغييري المختلفة؟ وهل هناك طريقة يمكن من خلالها تصنيع أو تخليق المزيد من الأسلحة الفعالة، بما يناسب حالات التغيير السياسي المختلفة؟ بل وهل يمكن أن تدخل حركات التغيير في «سباق تسلح» – إن جاز التعبير – مع الأنظمة الديكتاتورية، مما يعيد التوازن الاستراتيجي بينهما؟

هذا التساؤل الرئيس الذي صغناه في أشكال مختلفة، يمثل في حقيقة الأمر سؤالًا ضمنيًا حول الجدوى الفعلية لحرب اللاعنف. فافتقاد حركات التغيير اللاعنيفة لأسلحة فعالة ومؤثرة تعيد توازن القوة بينها وبين الأنظمة الديكتاتورية – بل وربما تفوقها في مراحل الصراع الأخيرة – يجعل جدوى استخدام اللاعنف كأسلوب تغيير سياسي محط تساؤل واستفسار، إن لم يكن محط شك وارتياب. ومن ثم فإجابتنا المباشرة على هذه التساؤل تتجاوز الرد على مدى فاعلية أسلحة حرب اللاعنف، إلى جدوى وفعالية حرب اللاعنف نفسها، في ميدان التغيير والفعل السياسي في ظل الأنظمة الإستبدادية.

٤- منهجية الإجابة

وفي إطار بحثنا عن إجابة هذا التساؤل المحوري حول طبيعة وجدوى أسلحة حرب اللاعنف، كان لابد ابتداءً من التناول النظري لبعض العناوين الكبرى المتعلقة بالفلسفة التي تنطلق منها أسلحة حرب اللاعنف. مثل: الخيارات المحتملة للتصدي للظلم، والعلاقة بين أسلحة حرب اللاعنف والدستور، وطبيعة نظرية القوة التي تنطلق منها حرب اللاعنف، والفارق بين أسلحة حرب اللاعنف وغيرها من الوسائل، والكيفية التي تقيَّم بها أنشطة حرب اللاعنف... هل هي مقاومة، أو احتجاج؟ وأهم خصائص هذه الأسلحة وطرق تصنيفها. وقد تعرضنا لهذه العناوين في الباب الأول من هذا الكتاب (**فلسفة أسلحة حرب اللاعنف**).

ثم اعتمدنا الطريقة التجريبية النوعية أو الوصفية لدراسة الوسائل المختلفة التي تم استخدامها في سياق الأنشطة اللاعنيفة على مر التاريخ المكتوب، وتحليلها. وقد استقينا الأفكار الأولية لكثير من هذه الوسائل من مصادر عدة، غطت:

جغرافيًا: مساحة واسعة من التجارب العالمية، بدايةً من القارة الآسيوية، ومرورًا بأوروبا وأفريقيا والأمريكتين.

وزمنيًا: حوالي ثلاثة قرون تبدأ من القرن الثامن عشر وحتى العقد الأول من القرن الواحد والعشرين.

وتقنيًا: مساحة بحثية كبيرة، استقيناها من المصادر والوثائق الأولية، والثانوية، والكتابات التحليلية، والأدبيات التي تناولت الموضوع، وخصوصًا ما كتبه جين شارب في كتابه «**سياسات العمل اللاعنيف: وسائل العمل اللاعنيف**»، وما كتبه جان ماري مولر في كتابه «**استراتيجية العمل اللاعنفي**»، وما كتبه كورت شوك في كتابه «**العصيان غير المسلح: الحركات الشعبية في البلدان غير الديمقراطية**».

وثاني هذه المصادر هي الأفلام الوثائقية المختلفة التي تناولت تجارب تغييرية بعينها، مثل الأفلام التي تناولت الحراك التغييري في صربيا، وأوكرانيا، والهند، وبولندا، وتشيلي، وجنوب أفريقيا، والأفلام التي تناولت أنشطة احتجاجية أو مقاومة لسياسات أو قوانين محددة مثل مقاومة الأمريكيين ذوي الأصول الإفريقية لسياسات التمييز العنصري، أو التظاهرات التي اجتاحت إيطاليا في عام ٢٠٠٠ احتجاجًا على زيارة رؤساء الدول الثمانِ الكبرى.

وثالث هذه المصادر، الأفلام الروائية التي تناولت قصصًا حقيقية مثل فيلم «**معركة سياتل**» الذي تناول مقاومة اجتماع منظمة التجارة العالمية في مدينة سياتل الأمريكية في عام ١٩٩٩.

ورابع هذه المصادر هي الحوارات، والمناقشات، واللقاءات المباشرة، ولقاءات الإنترنت، والفعاليات الإعلامية والعلمية والثقافية المختلفة، مع كثير من النشطاء والفاعلين حول العالم، وخصوصًا نشطاء العالم العربي والإسلامي.

كما ضم بحثنا مواقع ووثائق بعض الحركات التغييرية في مختلف قارات الكرة الأرضية، امتدادًا من شرق آسيا إلى غرب الولايات المتحدة الأمريكية، مرورًا بالعالم العربي وإفريقيا وأوروبا.

وقد اعتمدنا في استعراضنا لتلك الوسائل على مرجع أساسي وهو الجزء الثاني من كتاب جين شارب «**سياسات العمل اللاعنيف: وسائل العمل اللاعنيف**»، وكان الهدف هو استعراض لنماذج من أسلحة اللاعنف على سبيل المثال لا الحصر، ولم نكتف بمجرد كتابتها بشكلها الأولي الخام كما جاءت في مصدرها الذي أشرنا إليه؛ وإنما قمنا بتحليلها، ومعالجتها، والإضافة عليها، لتكون أسهل فهمًا، وأكثر استيعابًا، وأعظم قدرة على تحقيق الأهداف المرجوة. ويمثل هذا الجانب الباب الثاني من الكتاب (**أسلحة حرب اللاعنف**).

وليس هذا فحسب؛ بل أضفنا في الباب الثالث متطلبات إنشاء وحدات صناعة أسلحة حرب اللاعنف، عبر التأكيد على نوعية هذه الأسلحة، وكيفية تطويرها وتصنيعها، وذلك في إطار السعي لإعادة التوازن بين ما تمتلكه الحركات المقاومة من أسلحة، وما تمتلكه الأنظمة الديكتاتورية من أسلحة، وجاء هذا الباب تحت عنوان (**نحو أسلحة جديدة**).

٥- طبيعة هذا الكتاب

وفي النهاية يمكن النظر إلى هذا الكتاب من عدة زوايا، فالبعض قد يعتبره كتابًا تكتيكيًا؛ لتعرضه للكثير من أسلحة حرب اللاعنف، كما قد يراه آخرون كتابًا استراتيجيًا؛ لأنه وإن كان يتحدث في جانب تكتيكي متعلق بالأنشطة اللاعنيفة؛ إلا

أنه يمد الحركات بدليل إرشادي حول كيفية تصنيع، وتطوير، أسلحتها اللاعنيفة، مما يمكنها من إعادة ضبط ميزان القوة بينها وبين خصومها، كما قد يعده آخرون كتابًا فلسفيًا؛ لأنه يتضمن - بشكل غير مباشر - الرد على التساؤل المتعلق بالجدوى الفعلية لحرب اللاعنف، كأسلوب من أساليب التغيير السياسي، والتعامل مع الأنظمة الديكتاتورية.

والحقيقة أن جوهر الكتاب يأخذ الطابع التكتيكي، غير أننا نجد دائمًا نقاط تقاطع بين الدوائر الثلاث الرئيسة لحرب اللاعنف، الفلسفة والاستراتيجية والتكيتك. لذلك لا يخلو هذا الكتاب التكتيكي من التناول الفلسفي والبعد الاستراتيجي.

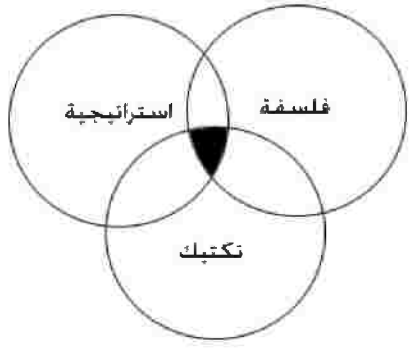

شكل ١: مساحة التقاطع بين الفلسفة والاستراتيجية والتكتيك يصعب الفصل بينها